انكسارات داخلية

جيدل بن الدين

« إلى الوجه الذي ما زال يمنحني حرارة الحياة رغم غيابه ، والصوت الذي سيظلّ هاجسي أبد الدهر . » .

كالزلزال العنيف كانت الدفعة . . . تداعت لها كلّ أطراف الجسد ، تساقطت بعض لبنات النّفس في غير تناسق . من غياهب القلب وظلمائه ناديتها وتقيّأت أمعائي . عندما انصبّ اسمها في أذن أحدهم قال :

- « ومن عساها تكون أمك ؟ . . . عاهر مرّ عليها كلّ رجال المدينة ! »

اصفرّ العالم ودار ، دارت معه الجدران والصُّوَر . . . وانصفق شيء بعيد بعيد ، تخيّلتُه جسماً يهوى من سابع سماء . . . تحسّست الرّطوبة الساخنة على جبيني . . . لزجة كانت ، وسريعة التّدفّق . . . كالحبّ . . . كالشّعر . . . كالمطر الغزير . . . كالصّوت الذي كنت أسمعه قبل قليل . . .

استولت عليّ رغبة جامحة في الراحة والاستلقاء . لاحت في خاطري أرض بعيدة الأفق ، واسعة الأرجاء ، يتوهّج اخضرارها تحت شفق عقيقي اللهب . أغمضت عينيّ ، رحت أحلم كما يحلم الأطفال . . .

كانت الحجرة ضيّقة ، ضيّقة جدّاً لكنّها بحجم الوطن . الشهداء الملصقون على الحائط يرنون إليّ . . . أرى عيونهم تتحرّك في محاجرها . لا شكّ أن أرواحهم تلتحم بصورها في بعض الحالات . سُحب تبغ (أوراس) الرخيص ورائحة النبيذ الأحمر والهموم المصبّرة في علب عالية التّركيز ، تمتزج في الداخل ، تُشجّر ، تملأ النفس تخمينات وأحلاماً عن الذي أتى والذي سيأتي . بعض الجرائد القديمة تغلّف سطح الصندوق الذي أستعمله منذ زمن كمائدة . رغم بقع النبيذ الحمراء المنتشرة عليها هنا وهناك ، فالكتابة ما زالت تقرأ وكأنّها خارجة للتوّ من المطبعة .

الرفاق الذين تعوّدوا زيارتي مساء كلّ خميس ، فات موعد حضورهم هذه الليلة ، تأخّروا أكثر من اللاّزم . لا بدّ أن أمراً خطيراً قد حدث . سأتلهّى بكأس وبشيء ما يشغل فكري قطعاً للهمّ . رفعت بصري إلى الصّور التي حال لونها . لم تبق منها إلاّ العيون والشوارب ناصعة السواد والبياض . تساءلت :

- « ما عساها تقول عيون الشهداء المحملقة فينا؟ . . . نهاية كلّ أسبوع نمارس أمامها ممنوعات الخمر والسياسة والألم . . . لماذا تحمل نظراتها هذا الأسى ؟ . . . أتراها مهمومة هي الأخرى ، تريد غمر ما بها بمشاركتنا هذا الذي نعبّه ؟ . . . تداوي جراحها مثلما نداوي بهذا السائل الأحمر الممنوع . . . يتشمّم البوليس رائحته ، يلاحقه أينما حلّ . . . وبوليس مدينتنا لا يترك الأحلام تمرّ دون جمركتها . . . دون التّحري عن لونها وطبيعة انتمائها ! »

طفا على سطح ذاكرتي شيء ، سمعته أو قرأته ، في حالة صحو أو سكر ، حاولت تجاهله لكنّه ظلّ يخدش الوعي والذاكرة . عريضة حيثيات منع النبيذ حملت في ما حملت من ادانات ، كونه أحمر اللّون ، كادح الانتماء ، يمنح الشعب متعة الحلم والتجلّي .

بقيت الغصّة حبيسة الصدر والعيون المشدودة الى العيون ، أحسست بهالة نورانيّة تأخذ بصري ، أدركت أن الحملقة في الصّور كالتّحديق في الشمس ، لا يرى بعدها الانسان غير الظلام .

عدت إلى الجرائد اليومية القديمة التي تغلّف سطح الصندوق. لا زالت أمامي تتشرّب السائل المراق، تمتصّه في تلذّذ ولوعة . . .

- « حتّى الورق كره عالمه ، يريد تغييره بك يا « دم السبع » . . . لم يُطفِحه ما سقوه من سواد المطابع ورصاصها . . . يريد أن يرحل بعيداً عن الأخبار الحزينة التي تسكنه . . . ينساها للحظات . . يمحوها من ذاكرته بقية اللّيل »

وعنّ لي أن أُسمِع الغرفة والصّور ما يدور بخلدي ، أن أتساءل بصوت مسموع عن السبب الذي يدفع الجرائد الى السّكر . في داخلي اقتناع بامكانية سماع الجواب من الجرائد نفسها . أكيد أنها ستتكلّم ما دامت عيون الصور تتحرّك في محاجرها . قبل أن أتكلّم ، جلجل صوت في أرجاء الغرفة . لا أعلم من أين ولكنّه أتى ، يتوهّج كالجمر في ليلة شتاء :

- « همومها أثقل من همومك أيها الحبيب . . . هي تشرب لنفسها ولعيون الشهداء . » التفتّ الى مصدره. لا أحد سوى ذاتي والقارورات الفارغة والصّور الرّانية .

- « قارورات فارغة ؟ ! . . . أيعقل أن أكون أنا الذي شرب كلّ هذه اللترات لوحده ، في زمن قصير كهذا ؟ ! . . . لا شكّ أنني سكران ، أهذي وأسمع أصواتاً من عالم الوهم . أسرفت في الشّرب والسائل الأحمر غير متوفّر . باعة الليل وحدهم يملكونه . . . . والشّرطة . . . وآخر الشّهر ما زال بعيداً . . مسؤول التموين سيحاسبني على هذا ، لن يغفر لي كلّ هذا الإسراف ، لن أطفح الكأس بعد هذه المرّة . »

رَجْعُ الصّوت لا زال يهزّ كياني . أصخت لعلّه يتناغم مرّة أخرى . صمت ثقيل يلفّ الكون . عدت إلى التفكير في الجريدة . لا بدّ لي أن أعرف بعض الذي تحمله . أفرغت الكأس في جوفي ، أبعدتها ، أبعدت القارورة . . .

- « لتذهب إلى أخواتها ، فالغربة صعبة يا أمّي ! »

واندلق في داخلي شيء ، لا أعرف كنهه ولا ماهيّته ، أرقّ من الشّعر ، أحرّ من الجمر ، كالغناء ، كالنّشيج . صرخت بصوت حادّ :

- « عظيم أنت أيها الكاتب الذي عانى كلّ هذا الألم ، مسكين أنت أيها الذي ستشربه ! »

وعاد الصوت الأليف يتدخّل ثانية :

- « أنت تكتب أيها الحبيب ، والكتابة خطر عليك وعليّ في هذا الزّمن » .

غاص كالخنجر في أعماق حزني . أمسكت قلبي ، كان يتلوّى تسحقه الأوجاع . حالتي لا تسمح بالتّمييز ، الوعي غاب ، عدت أُخلط بين الواقع والحلم ، أتوهّم أشياء لا وجود لها . استرجعت صورتها في نفسي ، تأجّجت في ظلماء الدّاخل ككرة من نار . تساءلت :

- « هذا الصوت يشبه صوتها ، يكاد يكون هو . أتراها دخلت معي الحجرة ساعة دخولي وسكري يعميني عن رؤيتها ، أم أنها حاضرة دوماً في الذات وصوتها هو أنا ؟ . . . لا بدّ أن أستجمع ما تبقّى من صحوي وأعانقها ، فالشّوق جنون والكتابة عُري » .

وتذكّرت رائحة التبغ والنّبيذ والجرائد المهمومة . والشّهداء يحملقون دوماً في هذه الحجرة الضيّقة ، تغشّي وجوههم مسحة المعاناة والكآبة . ربطت ذلك بخوفها من التّجلّي ، قلت لها في همس :

- « لا ترتعبي ، فأنا لا أريد الكتابة عنك ، لا أريد تعريتك وانّما أريد تعرية ذاتي . أنت غالية ، وأنا والنبيذ والهموم ورائحة التّبغ وعيون الصّور . عريك يحتاج إلى طقوس وأجواء شرقيّة ساحرة. داوي جراحك بكأس ان رغبت . افترشي همومك بجانبي . توسّدي الأوجاع ونامي في انتظار وصول الرّفاق الذين أبطأوا على غير عادتهم . بطّانيات الحزن هناك ، هل ترينها ؟ . . . . تناولي ما يحميك من جليد آخر اللّيل ، واتركي البقيّة لي ولهم » .

هدهدتها وشربت كأسي الثانية والعشرين . قدّرت هذا من عدد القارورات الفارغة . انتظرت أن يجلجل صوتها ثانية ، أن تقول لي :

- « أنت تحبّ أيها الكاتب ، والحبّ خطر عليك وعليّ في هذا الزّمن » .

ولكن الصمت ران . . . لا شكّ أنها نامت أو سكرت أو لم تحضر بتاتاً . محال أن تنام . محال أن تغيب . هل شربت معي ولم أع ؟ . . . لست أدري ؟ .

ركّزت ذهني لعلّني أستردّ بعض وعيي :

- « هل هي هنا حقيقة ، أم أنها حالة سكر وأنّني على وشك القيء ؟ »

تحاملت على نفسي ، شرعت في عدّ القارورات الفارغة . أربعاً كانت ، عندها تذكّرت مسؤول التموين يحذّر الساقي :

- « آخر قنّينة . اقتصد فالصباح ما زال بعيداً » .

ويحتجّ الرّفاق على سياسة التقشّف المنتهجة في حقّهم ، تذكّرهم بقساوة المصانع . . . سوادها . . . صرامة أغوالها . تتراءى لهم (الفيلات) الجديدة تنبت كلّ يوم . كلّ يوم سيارات جديدة ، أرصدة جديدة . يكثر اللّغط ، تشتدّ لهجة بيانات الإدانة ، تتحوّل الحجرة الضيّقة الى ساحة للتظاهر الشّعبي ، يتدخل مسؤول الأمن :

- «للجدران آذان أيّها السكارى . ممنوع ممارسة السياسة ولو داخل حجرة ضيّقة كهذه » .

أصرخ بأعلى صوتي :

- « لا بدّ أن تتحوّل احتجاجات الغرفة الضّيقة الى المصنع والشارع . لا بدّ » .

ويزلزل الباب ، ترفسه حوافر حديدية ، ترجّه ، يعاني ألم الانكسار . يصفعني تيّار قطبي يطير الجرائد ونشوة السّكر ، ينثر بقايا السجائر ورمادها . تفرقع مسامير الأحذية السوداء . يتقلّص حجم الغرفة ، تخنقها الكآبة . تتسمّر العيون التي كانت تتحرّك في محاجرها . أفتقد مسؤول الأمن والتّموين وصوتها ووجوه بقيّة الرفاق . أرى المصانع تبتلعهم نهاية كلّ ليل ، تتبرّزهم غروب كلّ شمس :

- « وحدي أنا يا أمي . غريب والغربة صعبة في هذا الزّمن . مهموم أنا ولا من يضمّد الجراح سوى الاعتصام بوجهك » .

قال عندما انصبّ اسمها في أذنه :

- « ومن عساها تكون أمك ؟ . . . عاهر مرّ عليها كل رجال المدينة ! »

اصفرّ العالم ودار . دارت معه الجدران والصور ، وانصفق شيء بعيد بعيد . تخيّلته جسماً يهوي من سابع سماء . تحسّست الرّطوبة الساخنة على جبيني ، لزجة كانت وسريعة التّدفّق . . . كالحبّ . . . كالشّعر . . . كالمطر الغزير . . . كالصوت الذي كنت أسمعه قبل قليل .

البيّض (الجزائر)

دار الآداب تقدم

سلسلة

بطولات عربية

- زنوبيا فارسة الصحراء بقلم فالح فلوح
- سيف الدولة الحمداني بقلم فالح فلوح
- معركة الزلاقة بقلم فالح فلوح
- لبيك ايتها المرأة بقلم سليمان العيسى
- الحدث الحمراء بقلم سليمان العيسى
- ابن الصحراء بقلم سليمان العيسى
- صلاح الدين الايوبي بقلم فالح فلوح

دار الآداب شارع البيان، بناية مركز الكتاب، ص.ب ١١٢٣ هاتف ٨٠٣٧٧٨